الرمس

للكاتب الافرنسي الشهير غوي دي موباسان

* * *

في صبيحة السابع عشرة من تموز سنة ١٨٨٣ عند الساعة الثانية ونصف استيقظ حارس مقبرة بيزيه من سباته في كوخه الحقير الواقع في طرف المقبرة على نباح كلبه المسجون في المطبخ .

فهب من مضجعه فاذا بالكلب ينبح نباحاً شديداً ويشم عتبة الباب كأنه يعلم بوجود غريب بجوار الكوخ . فحمل الحارس المدعو ڤنسون بندقيته وخرج متحذراً .

واندفع الكلب امامه واسرع راكضاً في زقاق الجنرال بوني حتى وقف امام التمثال المقام فوق قبر السيدة توموازو

وبينا الحارس يتقدم متلصصاً أبصر نوراً ضئيلاً في زقاق مالانثير . فاجتاز بين القبور بتأنٍ الى ان تجلى لعينه مشهد رهيب .

رأى امامه رجلاً ينبش قبر صبية دُفنت هنالك بالامس وقد أخذ باخراج جثتها من الرمس .

وكان القنديل الصغير الموضوع فوق كومة من تراب القبر يلقي أشعته على هذا المنظر القبيح .

فهجم الحارس على الشاب اللعس وصرعه وأوثق يديه وساقه الى دائرة

الشحنة ·

هنالك اتضح ان الرجل محامٍ شاب شهير في المدينة طيب السمعة عَلَى جانب من الغنى واسمه كورباتايل ·

فحوكم · فوقف المدعي العمومي وذكر القضاة بحادثة فظيعة جرت من هذا القبيل فاثار بكلامه غضب الحضور كلهم · وسرت رعشة الاستياء في القاعة كلها · ولم يكد المدعي العمومي ينهي خطابه حتى هتف البعض — فليقتل ! فليعدم ! ولم يستطع رئيس القضاة ان يهدىء الجمهور الا بشق النفس

ولما أتيح له ذلك نطق بلهجة الرئاسة الرنانة قائلاً

— ايها المدعى عليه · ألك ما تقوله دفاعاً عن نفسك

فنهض كرباتايل ، وكان قد رفض ان يُقام له محامٍ للدفاع ، ولما انتصب شاهده الناس شاباً جميلاً طويل القامة اسمر اللون ، وجهه جلي الملامح يتجلى فيه العزم وطرفه ينم عن جسارة واقدام ·

فصفر له بعض الحضور استياءً واستهزاءً ·

ولكنه لم يضطرب بل أخذ يتكلم بادىء بدء بصوت واطىء أجش · وما عتم ان تقوى صوته وارتفع

— « سيدي رئيس القضاة !

وسادتي المحكمين !

ليس لي ما اقوله الا القليل · ان الامرأة التي دنست قبرها هي حبيبتي · وكنت اهواها ·

لم يكن حبي لها ميلاً بسيطاً أو انعطاف قلب ونفس وقبي نافه ، بل كان هياماً لا حدود له وهوى خارقاً مدلهاً يخبل العقل

أعيروني سمعكم !

عندما صادفتها لاول مرة سرى في شعور غريب

لم يكن ذلك الشعور دهشة ولا انذهالاً ولا شعلة مبرقة أو ثوراناً وقتياً بل كان شعوراً بنعمة رغيدة منعمة مدهشة كأني القيت في ماء حمام فاتر . كانت حركاتها تأخذ بمجامع القلوب ، وصوتها ساحر كالطلاسم ، وكيانها كله يجلب سعادة لا تحد . وخيل لي اني اعرفها منذ زمن بعيد ، أو اني رأيتها قبلاً ، وشعرت ان بيننا قرابة نفسية تربطنا .

وكأني بها ظهرت لي تلبية لنداء قلبي — ذلك النداء الخفي الابدي الذي توجهه كل حياتنا نحو الرجاء .

ولما تعرفت بها وتقربت منها صرت اذا فكرت برويتها فقط أحس برعشة السعادة العميقة . وكنت أحسب لمس يديها غبطة لم ادركها قبلاً . وكانت ابتسامتها تهيج في سروراً جارفاً متجاوزاً حدود العقل يدفعني الى الوثب والرقص والتمرغ في التراب .

ثم صارت عشيقتي .

بل صارت اكثر من ذلك — صارت حياتي . فلم أعد ارجو من عيشي شيئاً أو اشتهي أمراً أو احسد أحداً .

وبينا كنا نتنزه ذات يوم توغلنا في السير على شاطىء النهر فتفاجأنا

مطر رذاذ بللنا . فاعتراها برد اضعف قواها .

وفي اليوم التالي اصيبت بالتهاب الرئة . وبعد اسبوع ماتت .

ولما كانت تنازع بين الموت والحياة منعني الخوف والاضطراب من ان أفهم أو أدرك ما يجري حولي .

فلما ماتت صرعني يأس مخدر فلم تبقَ في رأسي فكرة واحدة . فكنت ابكي فقط .

وفي اثناء أطوار الجنازة الرهيبة تحولت مصيبتي الحادة المتناهية الى عذاب جنون — فكانت الامها فظيعة قاسية عليَّ .

ثم لما فقدتها — لما ووريت في لحدها انجلت افكاري فجأة وانقشعت النشاوة عن عقلي واتضح لي ما تمَّ فقاسيت من الالام النفسية ما تتضاءل امامه قوى الهيام .

حينئذٍ ساورتني فكرة لجوجة موءداها — اني لن ارها قط .

اذا تمعن امرؤ بهذه الفكرة كل نهاره فلا شك ان الجنون يستحوذ عليه ! تصوروا ذلك انفسكم ! بقربكم شخص توءلهونه . شخص وحيدا لا مثيل له على وجه البسيطة . وهذا الشخص استسلم اليكم . فتكون من ذلك الاتحاد ميثاق سري ألهي يدعى حباً . عينا ذلك الشخص أعمق في عرفكم من المسافات واعز من العالم باسره . كيف لا وهما عينان برَّاقتان يبتسم منهما اللطف ! ذلك الشخص يحبكم . واذا حادثكم فصوته يبث في اعماق نفوسكم سيلاً جارفاً من السعادة .

وبينما انتم تتنعمون بهذه السعادة اذا بالشخص قد تلاشى ! تأملوا بربكم ! الشخص مات · أفهمتم هذه الكلمة ؟ هيهات ثم هيهات ان تروه فيما بعد ، وهيهات ان تستجلي هذه العين شيئاً من محاسنه ، وهيهات ان يلفظ هذا الصوت — وهو اشبه اصوات الاحياء بصوته — كلمة واحدة كما لفظها صوت الحبيب ·

هيهات ان يخلق وجهه كوجهها الجميل ابداً · كلا ابداً · وقد يسهل حفظ الهيئة التي صنع النحات تمثاله بوجهها ويهون حفظ الاثار والالوان التي اخذ المصور عنها صورته ، ولكن ذينك الجسد والوجه لن يعودا الى الارض قط · قد تتولد الوف بل ربوات بل ملايين من الخلائق وربما اكثر من ذلك ، ولكن هيهات ان يكون بين كل نساء المستقبل امرأة مثل هذه الامرأة · فمن يستطع احتمال هذه التصورات ؟

وما اسهل ان يمس المرء بجنة اذا أعمل فكرته في هذه الامور !

عاشت عشرين سنة لا غير ثم اضمحلت الى الابد بلا رجوع · كانت تفكر وتبسم وتحبني — هذا كل ما فعلت · أليس الذباب الذي يموت في الخريف يشبهنا نحن البشر ويشغل مكاناً مساوياً لنا في الكون ؟ فهو مثلنا لا شيء يبقى منه ! طفقت أفكر في ان جسمها البض الناصع المتوهج النضير سيبلى وتلعب به ايدي الفساد داخل النعش اسفل الرمس ·

أين اذن نفسها وافكارها ؟ اين حبها ؟ اين ؟

هيهات ان اراها فيما بعد هيهات ·

حامت افكاري حول ذاك الجسد المنحل وتأثرتني فلم استطع التملص منها · وتصورت اني استطيع ان اعرف ذلك الجسد رغم الانحلال · فدفعتني الرغبة الى النظر اليه مرة اخرى ·

فذهبت لاتمم رغبتي واخذت معي رفشاً وقنديلاً ومطرقة وتسورت حائط المقبرة فاهتديت الى حفرتها ولم تكن قد رُدمت بعد حق الردم

فنبشت عن التابوت ورفعت خشبة من خشباته فتصاعدت الى وجهي رائحة خبيثة أخذت بانفاسي · آه اين منهـا رائحة فراشها المضمخ بعبير السوسن !

فتحت التابوت متجلداً وادخلت القنديل اليه فرأيتها · ونظرت الى وجهها فاذا به مزرق منتفخ مخيف · وقد سال من فمها لعاب اسود كريه

أهذه هي ؟ أجل هذه هي · عند هذا اعتراني انقباض ونفور · عَلَيَّ اني تجالدت ومددت يدي وقبضت عَلَى غدائرها لاجذب وجهها الفظيع الي

عندئذٍ قُبض عليَّ ·

كما يذكر المرء أرج حبيبته بعد عناق وغمام في الغرام هكذا ظللت كل الليل اتذكر نتانة تلك الجيفة — رائحة حبيبتي

فاصنعوا بي ما تشاءون ·»

حينئذٍ هبطت عَلَى القاعة سكينة غريبة ·وصمت الحضور كأن عَلَى رؤوسهم الطير او كأنهم يتوقعون امراً مبهماً · وذهب المحكمون الى غرفتهم للمداولة ·

ولما عادوا بعد بضع دقائق لم تظهر عَلَى وجه المتهم أقل علائم القلق ولم يبدُ عليه أثر للاضطراب ·

فأعلن له رئيس المحكمة بالعبارات المصطلح عليها انالقضاة قد برأوا ساحته ·

ولكنه لم يعر ذلك التفاتاً ولم يحرك ساكناً · اما الجمهور فصفق ارتياحاً

اذا اردت ان تسأل فاسأل من كان في غنى ثم افتقر · فان الغنى يبقى في قلبه اربعين سنة · ولا تسأل من كان في فقر ثم اغتنى ، فان ذل الفقر يبقى في قلبه اربعين سنة ·

* * * * *

كان جعفر البرمكي يقول لكتابه — ان استطعتم ان يكون كلامكم كله مختصراً مثل التوقيع فافعلوا ·